دَفْعُ الهزيمة عن شعر أبي المطِّرف بن عَميرةْ

د. رعد ناصر الوائلي
جامعة واسط – كلية التربية _ قسم اللغة العربية

توطئة:

كان لابُدَّ لهذه الأرض التي شهدت أروع معاني الجهاد أن تَميدَ وأن تتحول إلى أرضٍ تتقاذفها الخطوب وتلعب بها يد الحدثان ...

وها هي الليالي وصروف الدهر تصول على هذا الصقع وتجول، فلا تدعه يستكين أو يركن.

وإنّا إزاء هذه المحنة التي عصفت بمغرب الأمة الإسلامي وجدنا أنفسنا أمام مفترق طرقٍ. فإما أن ننظر إلى النصوص الشعرية من كوةٍ تفلسف الجهاد وفقاً لأهوائها فتعدّه ضرباً من ضروب التباهي والتفاخر في المحافل والمناسبات، فتقِرنُ ما هو جهاد فعلي- أو إدعاؤه- بمراسيم أميرية يتوج في ختامها الأمير بالتيجان وتطِرزُ صدره النياشين مسبغة عليه صيغة الواجب الديني والتكليف الإلهي. لأنه خليفة الله في الأرض. ونجد هذه الاحتفالية قد ملأت دواوين الشعراء الأندلسيين مادحين مطنبين بموصوفات تكاد تلامس السماء برفعتها. حتى وإن كان الممدوح من الأمراء ممن كان البلاط مسرح عملياته العسكرية ولم يكد يبارحه!

في حين أوجبتنا نصوص شعرية أخرى إلى النظر من كوةٍ أخرى هي بالحقيقة أوسع من رديفتها، حيث الفينا أصواتاً جهاديةً تتعالى بين الفينةً والفينة الأخرى، في ارضٍ قلقة المهاد لم تألف السكينة والقرار، إلا في مُددٍ قصيرةٍ لاسترداد الأنفاس حسب! فنجد هذه الأصوات مستصرخةٍ حيناً عندما يفغر العدو فمهُ لالتهام المدن الأندلسية مناشِدةً أولي العزم والمروءة في عدوة المغرب_ في اغلبها الأعم_ أو نجدها باكيةً بُكاءً مُراً على مُلكٍ قد ضاع وحضارة تليدة كُسرت وضاعت. بينما هناك أصوات أخرى توجهت الى المِّلة المسلمة تدعوها إلى الهجرة من بلاد الكفر إلى بلاد الإيمان حفاظاً على ذمِاء المسلمين وكرامتهم، وخوفاً من انقطاع أواصرهم مع دينهم.

ووظف آخرون أنفسهم مصورين واصفين للمعارك وأبطالها بأسلوبٍ قصصي غايته إبراز معاني البطولة التي اتسم بها الجند المسلم. ومِن الشعراء ممن لم تسعفه قدرته على المطاولة والمرافعة في سوح الوغى رفع يديه متضرعاً إلى الله أن يحفظ المدن الأندلسية من التناثر. فكثر الشعر الديني بصنويه الزهدَ والتصوف، وراجت سوق شعر المديح النبوي، فتوقدت تلك الأشعار بأبيات أرجعت ما ألت إليه حال الأمة. إلى القضاء والقدر محاولة منهم التأسي بحال الأمم الزائلة وما حّل بها من خرابٍ على مر الزمان والأعصر.

في حين ألفينا شعراء قد حطموا أسوار الخوف أو المجاملة والمهادنة بعد أن طفح الكيل وغاصت الركب بالدماء، فأشاروا بأصابع الاتهام إلى أولي الأمر منهم (أمراء الدعة والسوء) ممن عاشوا ببروج عاجية تتوارى خلف متاريسٍ من الحصون والمنَعةِ بعيداً عن الشعب وآلامه.

إذن إزاء هذه النظرة وسواها مما ستفصح عنه أوراق البحث نحاول أن نبرئ صاحبنا الشاعر أبا المطرف بن عميرة(١) من تهمة الانهزامية التي لازمته على أيدي عدد من الباحثين بعد أن تيقنت أن هذا الشاعر لم يُنصف ولم تُفهم دعواته التي كان يطلقها أنى حين.

قمينٌ بنا ونحن نتصدى لدراسةٍ كهذه تحاول إماطة اللثام عن تهمة ألصقت بهذا الشاعر أن ننظر إلى ما توافر من نصوص شعرية تُسِعفنا على رد هذه المظلمة عن شاعرٍ نذر نفسه لخدمة دينه ووطنه وارتأينا أن تكون تلك النظرة من خلال محاور عدة تجتمع في نهاية الأمر لتصّبَ في دفع الهزيمة عنه. وسنحاول أن نترك نهايات البحث مفتوحة لأراء الباحثين والقراء. فأما المحاور فهي:

مفهوم البطولة وما يخالفها أي (الجهاد والانهزام)، والإيمان بالقضاء والقدر وارتباطهما بالعقيدة الإسلامية، ومحور يلقي نظرة على الواقع الأندلسي لبيان حالة الانكسار السياسي وانفراط سلك المدن وتوالي سقوطها. في حين كشف محور أخر حقيقة الهجرة من المدن الساقطة إلى مدنٍ أخرى لما تسقط بعد ان اعتبر ذلك مطلبا عقديا. ووظف محور اخر لبيان حالة التأرجح في المعادلة الأندلسية في طرفيها الأمل واليأس. أما آخر المحاور فقد انصَبتّ على تفسير لما شابَ الأدب الأندلسي من فقدانٍ للنصوص، وتعميم الأسباب وتعويمها فضلاً عن انتشار ظاهرة النصوص الشعرية التي لم يُعرف قائلها.

فالبحث في مجمله محاولة جادة لباحثٍ يرتجي رضا الله بعلمٍ ينتفع بِه، فإن أصبنا فمن الله. وإن لم نصب فحسبنا حاولنا ... ومن الله التوفيق والسداد.

ـ محاور البحث ـ

أولا: مفهوم البطولة وما يخالفها:-

لم يكن بدعا أن تتداخل مفاهيم البطولة الإسلامية مع مفاهيم أخرى تدعم وتوسع من آفاقهِ. فلم يعد لفظ الجهاد أو المجاهد يُطلق على الجندي المسلم الذي يصارع العدو في معترك الوغى وجهاً لوجه حسب. بل تعدى ذلك إلى مَنْ يدعم هذا المجاهد بالقول أو الفعلِ ولعل احتفاء الرسول الأكرم محمد (ص) بالشعراء الذين نافحوا عن الإسلام، وإكرامه لهم دليل راسخً على ذلك فالشعر الذي ينبعث من التصور الإسلامي لمفهوم الأدب، إنما هو شعر جهادي يحلِّق الشعراء من خلاله إلى عوالم جديدة وأخرى رحبة ترتسم معانيها من خلال تآزر الإغراض الشعرية مع بعضها لتؤلف

نسيجاً من الشعر الجهادي وبصوتٍ مدوٍ. فكثيرُ ما التقى الشعر مع الدين فيتبوأ بذلك الشاعر مركزاً مهماً في مجتمعه نذيراً لأمتهِ منافحاً عنها الشرور. استناداً إلى الرؤية الإسلامية التي ترى ((مُحرِّضُ واحدُ خير من مائة مقاتل))(٣).

فوفق هذه النظرة غير المحُددةِ في إطار والتي تعزز مفهوم الجهاد والدعوة إليه نجد أنفسنا في مندوحة واسعة في اختيار النصوص التي تدعم هدفنا في إبراز الدور البطولي لشاعرنا. فمفهوم الجهاد إذن ليس مفهوماً ضيقاً وإنما هو مفهوم يتفرع إلى دلالات وأبعاد شتى(٤).

تأسيساً على ما تقدم نستطيع القول:إن الشاعر إذا ما تواريْ عن الأنظار في شعره عند اشتداد الخطوب، أو يعيش في حالةِ من الهيامِ والرومانسية المفرطة دونما اكتراث للأزمات. أو تجده مُنكباً على دنياه وهو يلوذ في بلاط هذا الأمير أو ذاك طمعاً في نوالٍ أو منزلة. أو نجده متوارياً خلف متاريس النفاق السياسي، فيعلي من قدر هذا ويحطُّ من قدر ذاك من دون حقٍ في ذلك هو في الحقيقة من يسوغ لنا أن نطلق عليه شاعراً انهزامياً.

فالانهزامية- كما نعتقد- هي سلوك يستمري على شخصية الفرد في عمله وأخلاقه وهي نسيج وحدها ومتكاملة في الظاهر والخفاء ولذلك لا تدع الفرد يبارحها لما تسبب له من جُبن واضح في حياته مجملها العام والخاص منها. وهذا ما لم نجده عند دراسة شعر شاعرنا ونثره، فضلاً عما أُثر عن حياته.

لعلّ ما نريد أن نصل إليه من خلال هذه المداخلة تبرير تلك الوقفات التي فهم – مَن تحدثنا عنهم من الباحثين – رائحة الانهزام وهي تفوح من عدد من المقطعات والقصائد الشعرية في شعره، فإننا وإن لم نتفق على مجملها فإننا من جانب أخر نحيل أولئك الباحثين إلى الجانب الجهادي الآخر من صنوف الأدب واعني به النثر. فلقد وقفنا على رسائل(٥) استصراخية واضحة يدعو من خلالها أصحاب القرار في عدوة المغرب لمد يد العون واغاثة الأندلس. واخرى موجّهة الى رفيق دربه الشاعر ابن الابار (٦٥٨هـ) في الاطار نفسه. وارى انكم تشاطروونني الرأي من ان العاطفة العقدية التي تستمكن في بواطن الأديب سواء أكانت في الشعر أم النثر هي نفسها مع إيماننا بأهميتها في فن الشعر وجلال قدرها.

والانهزامية تبدو في أوسع أبوابها عند أولئك الشعراء الذين جفت أقلامهم وسكتت حناجرهم من قول أي ضرب من ضروب الشعر وهم يرون مدناً تسقط وعرشاً يتهاوى، ولم تجد أي صدى لذلك في شعرهم. كما حدث لمدن أشبونه(٧)، شنترين(٨) طرطوشه(٩) جزر البليار(١٠) وقرطبة(١١)، واخرى كثيرة فلم يبكِ هذه المدن شاعر، وهي- كما نعلم- كانت مصنعاً لكثير من الشعراء! في حين كنا نتوقع عند دراستنا لحالة التوتر على الصعد كافة بصقع الأندلس، ان تكون كافية لايقاظ هواجع النخوة، ويكون التوتر طبقاً لذلك مدعاة لابداعهم.

فمفهوم الجهاد كما بدا لنا طفح في محاولتنا هذه يتسع الى مفاهيم أخرى تدعمه لا سيما في جانب القول منه، فلربما تكون الكلمة وما ينطوي تحتها من عبارات، ابلغ من السيف ووقعه. وإذا ما لمسنا من دعوة من الشاعر ابي المطرف بن عميرة في التأني والمرابطة في الثغور من دون الاقدام على معركة محسومة نتائجها سلفاً إلا لايمانه الشديد بأن الرباط أضحى مُقدماً على الجهاد حقناً لدماء المسلمين متكئاً في ذلك على حقيقة فقهية تدعو الى أن درء المفاسد مقدم على جلب المنافع. وها هي نفثات الشاعر تبدو واضحة عند استصراخه للامير الحفصي، ليدفع البلاء عن مدينته بلسنية إبان حصارها فقال:(١٢)

تدارك أمير المؤمنين دماءنا فإنك للاسلام والدين ناصرُ
ووجه الى استنقاذنا بكتيبة يهابُ منها الردى المحاصر
تنفس من ضيق الخناق بقطرنا فتدرك آمال وترعى أواصِرُ

فالقصيدة كما تظهر أنها تنطوي على دلالات وايحاءات شتى يُظهرها سياقها المتجانس مع إضفاء عنصر المبالغة الذي نعلم اهميته في مثل هذه المواقف.

الايمان بالقضاء والقدر ركن من اركان العقيدة المسلمة:

لا شك ان هذا المفهوم متجذر في عقيدة المسلم لا يكاد يحيد عنها لأنه ركنٌ من أركانها، مع ايمان راسخ بما لا يقبل الشك في أنّ ارادة الله تعالى فوق كل الارادات. فلا محيص إذن ولا رجاء من أمرٍ قد قضى الله فيه. قال تعالى: (ولكل امة اجلٌ. فإذا جاء اجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون)) الاعراف/ ٣٤.

إن ركون شاعرنا الى هذا المفهوم الذي يبدو في ظاهره مثبطاً للعزائم والهمم ويُشَمُ منه رائحه الانهزام ايضاً. دفعت الباحثين الى قولهم بانهزاميته مُتناسين أن القرأن الكريم قد صوَّر لنا اهوال يوم القيامة، وكذا هلاك الدول والامم مما دفعت الشاعر الى الايمان الذي لا شائبه فيه من أنّ الله سبحانه وتعالى سيقتص من الراتعين في الدعة والملذات (واذا اردنا أن نهلك قرية أمرنا مُترفيها ففسقوا فيها فحّقَ عليها القول فدمرناها تدميرا) الاسراء/ ١٦. فقال(١٣):

يا دهر ليتك كنت عنا مُعرِضاً إذ لا نرى لك غير وجه كالحِ
أولدت أيام المكاره ثم لا نرجوك في ميلاد يوم صالحِ
وأبيتَ غير ضغينة من كاشرٍ وحميت إلا من سخيمة كاشح

وأرُحتنا عن منزلٍ كَنا به في ظل عيشٍ بالاماني طافحِ

ويرضخ في موضع آخر الى الحكمة وصروف القدر، معتبراً من زوال الأمم السابقة وذلك في معرض حديثه عن مدينة شقر المدينة التي ولد فيها فيقول(١٤)

شقر وما شقر وايك حوله تسلى النفوس بصائح او صادحِ
ارض تخيرها لطيب هوائها عبقون من ارج الثناء الفائحِ
وارى النعيم وكل ما يغدو له يوماً يصيرُ الى زوالٍ رائحِ

ثم قال وهو مُذعنٌ للقدر بعد سقوط مدينة بطليوس عام (٦٢٧هـ)(١٥):

ولم أر مثل الحق أما طريقه فامنٌ وأما جاره فعزيزُ
وإذا ما امرؤ آوى اليه فحصنُه حصينٌ ومأواه المباحُ عَزيزُ
فَكُن معه تظفر بما شئت من منى مصارِفُها بالصالحاتِ يفوزُ

وفي المعنى نفسه نجد تلك الحقيقة التي وقفت حائلة بين تطلعاته وبين واقع مدينته بلنسية التي رُزئت بالسقوط. فَبعَدَ أن يظهِر تحسره وتوجعه وتفطِر قلبه على ما آل اليه وضع بلنسية بقصيدة يظهر محاسنها في كل زاوية وركن، رجع الى ذلك الصدى الذي غالباً ما كان يتردد على اذنيه، وهو أنّ القدرَ اقوى من تذراف الدموع. وحسبهُ التفويض والتسليم له، فقال(١٦)

يالك عهداً مضى ومرتبعا كان به العيش مثله اخضر
وجيرة منهم الديار خلت ومنزل الصبر بعدهم اقفر
جمعهم دهرهم فكان كمن شح ، والقى بهم كمن بذر
وعاد قلبي من شرق اندلس عيد أسى فتّه وما فُتّر

وكغيره من الشعراء الذين سار على ديدنهم في رثاء مدنهم، تراه يتخذ من التاريخ معيناً يسترفد منه مواضع العظة والاعتبار من صروف الدهر فقال: (١٧)

أقلوا ملامي أو فقولوا واكثروا ملومكم عما به ليس يقصرُ
يحِّنُ وما يجدي عليه حنينه الى اربعٍ معروفها متنكِرُ
ويندب عهداً بالمشقر فاللوى واين اللوى منه واين المشقر
تغيرّ ذاك العهد بعدي واهله ومَنْ ذا على الايام لا يتغيرُ

فهلاك الأمم والدول أمرٌ مفروغ منه. ولكن وقته مجهول لنا ومتعلق بتقدير القادر وحده. والدول كالاعمار البشرية كما يراه ابن خلدون(١٨) وهذه الحقيقة لم ينادِ بها ابو المطرف بن عميره وحده بل سبقه في ذلك جلّ الشعراء ممن رثوا بلدانهم. وبذلك ندفع الانهزام عن شعره في هذا الموضع.

الواقع الأندلسي (حالة من الانكسار السياسي وانفراط سلك المدن) ..

يمكننا القول إنّ الواقع السياسي للاندلس قد مَرَّ بمرحلتين رئيستين الأولى: مرحلة الفتوحات وجني الانتصارات التي انتهت إلى معركة العقاب الشهيرة سنه (٦٠٩هـ) والأخرى هي مرحلة ما بعد العقاب التي شهدت تفكك عرى الآصرة السياسية هناك، وتوالي سقوط المدن كما رافق ذلك اعلان بعض الدول الاسلامية انفصالها عن الدولة الموحدية (عصر الشاعر) كدولة الحفصيين بتونس بزعامة ابي محمد بن عبد الواحد بن ابي حفص. ودولة بني مرين في المغرب بزعامة عبد الحق بن محيو سنة (٦١٤هـ)(١٩).

كما رافق ذلك ايضاً ظهور زعامات جديدة على المسرح السياسي كابن هود(ت٦٣٥هـ) الذي اعلن نفسه أميراً على مرسية وقرطبة وغرناطة و سواها.

فالمسرح السياسي إذن كان متخَبَطاً في تلك الحقبة الزمنية الهائجة كما أن معالم الصراع بين القطبين (المسلمين والنصارى) بدت واضحة لا سيما بعد اعلان النصارى- وبمباركة الكنيسة- حرباً استردادية ضروس لا مناص من الاقرار بشراستها وجديتها بأسترداد هيبة الصليب. يقابلها في القطب الأخر ضعف واضح امام قوة النصارى(٢٠) واستئسادهم.

نعم لقد استأسد النصارى في حربهم هذه لاسترجاع المدن الى الحصن الاسباني وعبأوا لها من المدد المعنوي والمادي، فحققوا انتصارات كبيرة في (المرية)(٢١) و (لاردة)(٢٢) و (افراغة)(٢٣) في شمال الأندلس. فتعاظم شأنهم واستقوى عودهم بعد أن كان واهناً فضلاً عن نقضهم العهود التي ابرموها مع المسلمين(٩) فعجّل من سقوط المدن وفيهم قال الشاعر أبو المطرق بن معيرة: (٢٤)

ترك وأخذ لا تأمل فيهما للحال في المتروك والمأخوذِ
نبذوا عهودهم ويا لك ضلة من نبذها لمشردٍ منبوذِ
عمت اذايات الزمان ودون ما صُرنا اليه كَل أمرٍ موذِ
فاعجب لفار السد في وهن القوى حيث انتهى وبعوضة النمرَوذ

وبدأ الاندلسيون– ساعتذاك يلعقون مرارة الهزيمة وذلها لما كان يعتصرهم في اختلاف في القلوب وسوء تدبير وانحطاط في الروح المعنوية وتدنيها، فضلاً عن انغماس قادتها بالفسق والدعة. ولعلّ افضل ما صوّر هذا الوضع المتهالك الشاعر ابن الدباغ(٢٥) وهو معاصِرٌ لابي المطرف بن عميره. إذ قال(٢٦)

وقائلة اراك تطيل فكرا كأنك قد وقّفت لدى الحسابِ
فقلتُ لها: افكر في عقابٍ غدا سبباً لمعركة العقابِ
فما في ارضِ اندلس مقامٌ وقد دخل البلا من كل بابِ

في واقع سياسي منكسر كهذا، كيف يمكن ان نطالب شاعراً كابن عميرة أنْ يسلّ سيفه في ميدان الشعر ليواجه امواجاً متلاطمة ودروعاً مصّرة على تحقيق النصر والحاق الهزيمة بالمسلمين مع ما رافق ذلك– ومما يؤسف له، لا مبالاة او اكتراث بالاحداث المؤلمة من جانب اولي الأمر من المسلمين ومما زاد الأمر سوءاً ايضاً اتقاد الثورات الداخلية مع تدخل واضح من المولدين والبربر والنساء في شؤون الدولة وارادتها. صاحب ذلك توقد جذوة العاطفة على الطرف الآخر في جانبها الديني والقومي بعد تدخل الكنيسة في ذلك.

فدولة الموحدين وإن انتهت عام (٦٦٧هـ) إلا أن نهايتها الفعلية كدولة ومؤسسات سبقت ذلك باكثر من خمسين عاماً وظلت تنافح الصليبيين في هذه الحقبة اسماً فقط، كهيكل خاوٍ. ولعلكم تشاطروننني الرأي من أنّ صفة اليأس واعتصار الألم وتفجر العاطفة التي اكتوى بها شاعرنا، وهو يرى مدينته الصغرى (بلنسية) ومدينته الكبرى(الأندلس) قد تناثر عقدهما وفقاً لما اسلفنا من واقع سياسي مرير، من المحال أن يعود الى عهده الأول، فدعته يخفف من تلك الانفعالات العاطفية المتشنجة التي غالباً ما يوسم بها العربي في شخصيته المتطرفه تلك الشخصية المزاجية الحادة المفعمة بالردود المباشرة على ما يحيط بها من احداث سواءٌ أكانت مفرحة أم محزنة فالعربي كما هو مألوف– متطرف في حبهِ وكرههِ، ويُعرِّي من يشاء باوصاف تبلغ الحضيض ويرفع في الوقت عينه من قدرهِ باوصاف تبلغ عنان السماء. وهي الشخصية نفسها التي انطلق، وسينطلق منها عدد لا باس بَه من الباحثين في آرائهم المتطرفه فيسبغونها ليس على النصوص وما تتبىء عنها. بل تعدى الأمر ذلك بأن يطالبوا المبدع نفسه أن ينفعل كانفعالتهم النقدية. متناسين أن الشاعر ابن المطرف بن عميرة كما لمستُ من خلال قراءتي المتأنية لنصوصه الشعرية، امتلاكه القدرة التحليلية للواقع على وفق تطور الاحداث بمنظورها المنطقي فضلاً عن تمتعه بأناةٍ وتمعّنٍ. ثم رضوخ الى

مجريات الواقع. كما استطاع وببصيرة الشاعر المتأمل أن ينفذ الى صميم الاحداث وتحليل واقعه ومستقبله الذي يبدو له ظلامياً في آخر النفق. وهكذا كان وهكذا حدث.

ثم ألم تكن الدموع التي تذرف والحنين العارم والألم الممض من الوطنية(٢٧) لا سيما ان النصوص الشعرية التي بكى فيها الشعراء مدنهم كانت تردف الحدث (السقوط) ولم تسبقه أي بمعنى آخر بعد حدوث الكائنة ولذلك لم تكن قصائده مثبطة للعزائم بقدر ما كانت تحمل في طياتها تأسيا وعزاءً ومداواة لجروحٍ عميقة.

فالكلمات الرنانة ذات الوقع الكبير التي تسمع من خلالها قرع السيوف وهي تشيد بذلك القائد وفتحه أوتلك التي تفتح باب العطايا واسعاً للشاعر وهو يمجد ممدوحه في معركة لا تشكل بعداً (استراتيجياً) في حلبة الصراع وقتذاك لانه انتصار غالباً ما يكون واهناً أو يخيلّ انه انتصار إذا استثنينا بعض الوقعات الشهيرة كالأرك مثلاً عام (٥٩١هـ)(٢٨) فالاندفاعة الصادقة للجهاد قد اتى عليها البلى واصبحت ترفاً يتفوّه بها الأمراء في محافلهم، لما شاب ذلك من ريبة في الافعال لا تتناسب مع وقعها! فضلاً عن التناحر والفرقة حتى تهالكت المدن من جراء قتال الاخوة فيما بينهم (فتجيرُه) نصراً وحسناً صوّر هذه المواقف والبطولات المزعومة، الشاعر ابن العسال في قوله(٢٩):

ياأهل الاندلس حثوا مطيكم	فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من اطرافه وأرى	ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنا	كيف الحياة مع الحياتِ في سفطِ

لازلنا بمحاولتنا لتبرير عزوف شاعرنا عن التغني بالنصر كما متوقع منه، كصنّوه الشاعر ابن الابار يرجع إلى السبب نفسه الذي ننادى به واعني ذلك الموقف المتجذر في نفسه وهو يعكس حقيقة ما يجري على الساحة، فمن أين يستمد مقومات نصر لمدينته التي سُلمت دون قتال بعد أن استسلم صاحبها وهو يئن من وجع الحصار وقلّت الأقوات ونفاد المؤون. كما أنّ الاستجابة الخجولة لدعوة ابن الابار من إخوانهم المغاربة لا نرى لها أي بُعد عسكري، فقد كانت كما تلمسنا ذلك إغاثة جائع وليس إغاثة ملهوف، فلّم تعّد الجيوش لهذا الأمر اعدادا يُفهم منه نصرة الاخوان .(٣٠)

والأدهى من هذا كله ما يقرع أسماعنا من أنّ الأمراء أنفسهم كانوا يخطبون ود النصارى ويستميلونهم للتصالح والاستسلام لهم مقابل وعود لا تغني ولا تسمن وبشروط مخزية. وكان كل هذا من اجل البقاء على سدة الحكم، أمراء على عرش خاوٍ كما حدث في منورقة(٣١)، حيث كان الشاعر أبو المطرف شاهداً على ذلك والأمر نفسه نجد، وبوقع أعمق في كائنة ميورقة حينما تغلب العدو عليها وقتل فيها أعدادا كبيرة من المسلمين.

فهذه التجارب المخزية وتداعي شريط الأحداث أمام عيني الشاعر دفعته إلى التروي والحلم فدعى الى تقبل النتائج بأقل الخسائر لأن الإقدام في معارك كهذه يُعدّ انتحاراً وقذفاً للنفس في التهلكة.

وعوداً على بدء، فإنّ تذراف الدموع على وطن قد زال وعلى حضارة طُمست معالمها أراه من الوطنية التي لا يتسرب اليها الزيف، بل هو نابع من التزام الشاعر بقضيته التي نذر نفسه من اجلها. ورثاء المدن يُعدّ منطلقاً للشاعر وتنفيساً عن الحسرة التي تعتصره دونما مقابل او نوال أو إطراء أو ثناء يجنيه الشاعر مقابل شعره! ولا ننسى انّه تعبير عن العقيدة الثابتة بمسحة حزينة وعاطفة صادقة عند اشتداد الخطوب ولا ضير أن نجد النزعة الذاتية التي استطاع الشاعر أن يحيلها إلى مشروع وطني عام من خلال ادكاره ملاعب الصبا ومضارب الأحبة وسواها. فلطالما ارتبطت العقيدة بالأدب منذ ولادته وظل مُتأثرا بها وأصبح في تكوينه الأساس في حاجة الى تصوراتها وتأثر الأديب بتوجهاتها(٣٣)

لا يخفى على القارىء اللبيب وهو يقرأ قصائد شاعرنا، لا سيما غرض الرثاء منها تجلي الصدق الفني بوضوح لأنه خلاصة لتجربة شعورية تعبر عن انفعاله تجاه الحياة والمصير تعبيراً نكاد نلمسه ونحس به بل ونشاركه رغباته وآماله وحرمانه في الوقت عينه. فتداعي الذكريات كما يبدو تحيل قصيدته الى مسرح تتقافز فوقه كوامن النفس كقوله(٣٤).

أقول لساري البرق في جنح ليلةٍ كلانا بها قد بات يبكي ويسهرُ
تعّرضَ مُجتازاً فكان مُذكراً بعهد اللوى والشيء بالشيء يذكرُ
أتأوي لقلبٍ مثل قلبك خافقٍ ودمعٍ سفوحٍ مثل دمعك يقطرُ

فَمسُحة الحزن والأسف واضحة فيها فضلاً عن استحضار دائم لمعالم المدينة (بلنسية) وما حلّ بها من خراب ودمار، بعد أن كانت ذات حُسن وبهجة ورونق مؤكداً على استجلاء صورة تعاقب الشعراء على إظهارها وهي خرس أذان المسجد .

جديرٌ بنا ونحن نتصدى لدراسة ظاهرة البكاء عند شاعرنا التي حُسبت عليه، وليس له في ميزانهم النقدي! الإشارة إلى أنّه قد نبّه ومنذ وقت مبكر الى المصير المحتوم الذي ينتظر الاندلس قاطبة ملتمساً كمعاصريه من الشعراء ذوي البصيرة والخبرة (الرندي ت٦٨٤ هجرية) وابن الابار بوادر الانهيار الشامل الذي سرى في المدن والنفوس وحالة الانهزام الروحي بسِبب حبكة الحرب النفسية التي أجاد الصليبيون تسويقها من خلال (الطابور الخامس) الذي تغلغل في الصفوف، فصّور القائد الصليبي (الفونسو السادس) على أنه البطل الذي سيستأصل شأفة

المسلمين أينما ثقفهم. فضلاً عما لمسه من فتور سرى في الجيش والناس وحالة من التململ من جراء استمرار الحروب.

إنّ المتتبع لسيرة ابي المطرف بن عميرة سواء أكان شاعراً أم كاتباً في البلاط الموحدي سَيُدهش من تلك العاطفة الوطنية نحو بلده بلنسية او الأندلس. فرسائله المتبادلة مع رفيق دربه ابن الابار تُظهر وبلا أدنى شك هذه العاطفة التي اغفل الباحثون إظهارها في بحوثهم، وهم ينظرون إلى الجانب السلبي من شخصيته، ويضّم كتاب نفح الطيب(٣٢) رسائل عديدة في هذا المضمار وهو يتحسر على بلنسية كقوله: ((...وانزل بها ما أنسى التاريخ ومَنْ أرَّخ فوصفكم على الحادثة فيها أتى وفي ضمان القدرة والانتصاف من عدوٍ عثا وعتا. وإنّا لنرجوها كّرة تفك البلاد من اسرها وتجبرها بعد كسرها. وإن كانت الدولة العامرية منعت بالقراعِ ذمارها ورفعت على اليفاع نارها فهذه العُمرية بتلك المنقبةِ أخلق والعدو لها أهيب ومنها أفرق))(٣٥). وهو أيضاً لم يهرب مع الأخرين حينما دهم الخطب في ضروب كثيرة بل شارك فعلاً مع الامير زيان بن مردنيش في حروبه وكتب عنه الرسائل ومنها اثنتان .

الهجرة من المدن الساقطة مطلب عقدي:

لقد آثر عدد كبير من مسلمي الأندلس الهجرة من المدن التي تقع فريسة اعدائهم الى مدنٍ أخرى هرباً من المعاناة والتنكيل والعنت والتجاوز على الأعراض، بل وهتكها والإكراه على تبديل الدين والقيم والعادات في صور يندى لها جبين الإنسانية لما حملوه من حقد دفين. وتحولت المأساة – وقتذاك – من مأساة سياسية وانتكاسة عسكرية الى مأساة اجتماعية مست العائلة الأندلسية وشتت رأيها وتوجهاتها. فدبَّ الوهن والهلع في صفوف العامة والخاصة كونهم قد خبروا ما حلّ ببلنسية في سقوطها الأول عام(٤٨٨هـ) وتعرضها للتنكيل لمدة سبعة عشر عاماً.

إزاء وضع كهذا وجد المسلمون– ومنهم شاعرنا– أنفسهم أمام خيارات كان أحلاها مرٌ كما يقال. فإما هجرة جماعية الى ديارٍ لم يألفوها من قبل تاركين خلفهم إرثهم الحضاري والاجتماعي والمادي الى ارض أخرى سيأتي عليها السيل العرمرم بعد حين (هجرة داخلية) أو هجرة خارجية إلى ما وراء (المغرب أو تونس) وستواجههم حينئذ صنوف من الذل والانكسار والعوز لما شابَ هذه الدول من اقتصاديات واهنة ونقص في الأقوات والزراعة. فضلاً عن نظرة الذل والصِغار من قومٍ ينظرون إلى الأندلسيين على إنهم أضاعوا مجدهم بيدهم. أو أنهم يبقون في ديارهم (ديار الكفر في نظر الفقهاء) وهم يلعقون الذل يومياً مع لبن الحياة فيذل عزيزهم ويذهب دينهم.

أمام خيارات كهذه تمنى كثير منهم ممن لا يحتمل هذه الأوضاع الموت كما قال احد الشعراء بعد سقوط طليطله:(٣٦)

أُديلت قاصرات الطرف كانت مصونات مساكنها القصورُ
وأدركها فتورٌ في انتظارٍ لسربٍ في لواحظه فتورُ
وكان بنا وبالقينات أولى لو انضمت على الكلِّ القبورُ

وفي المعنى نفسه وبوصف أدق لمشاهد الرحيل نستمع الى أبي المطرف بن عميرة وهو يقول: (٣٧)

صاحَ بهم صائح الرحيل فما فيهم على البين واحد سلما
وجاس بالروع عقر دارهم من بَعد ما كان سربْهم حُرما
فهم عباديدٌ في البلاد ولا شملٌ يكفُّ الخطوبَ منتِظما
قد اقسم الدهر أن يفرقهم وجنّبَ الحِنثَ ذلك القسما
ياسائلي عن بكاي بعدُهم بكيت دمعاً حتى بكيت دما

ولاحظ معي كيف استشرف الشاعر المستقبل فوجده مظلماً فانكفأ على نفسه يآساً. فكيف الخلاص وقد مزّق الاعداء ركناً من اركان الدولة الكبرى واعني بها بلنسية ومن قبلها (سلا) في حين كان اولي الامر ينامون على اريكة الذل ينتظرون يومهم واضحت العودة مجرد سراب فقال(٣٨)

قيل تقضى لبانة المشتاق ويحيلُ اللقاءُ حال الفراق
وتؤدي من الدنو حقوقً هي دين في ذمة الدهر باقِ
ويرى ما دجا من الهم يبدو بنجوم السرور ذا اشراقِ
قلت ما تذكرون اضغاث حلم دون غمض يسري الى الاحداقِ
واحاديث للمنى إن اقيمت في خيالٍ قامت على غير ساقِ
كيف هذا اللقاء والبعد القى سعينا فيه في يد الاخفاقِ
بعد أن أبقت النوى بيننا بهـ ماء قطاعة ظهور الرفاق
ودهتنا من الفلاة خطوبٌ أشبهتها خطبانها في المذاقِ
وركبنا متن الخِّضم بأحشا ء حكته في زحزة واصطفافِ

حتى أن ابياته التي راح يدعو فيها لخراب بلنسية إلا لايمانه المطلق بعدم عودتها الى الحضن الإسلامي. فكان يتمنى أن يراها خربةً حتى لا يستمتع العدو فيها ويهنأ. وهي اقرب الى سياسة الارض المحروقة) في العِرف العسكري الحديث. فقال: (٣٩)

ألا لاسقت غر الغوادي منازلاً طعمنا جناها وارتعينا جنابها
وما لي استسقي الغمام لتربةٍ أغصت لحيات الصليب لصابها
وشردت التوحيد تشريد ساخرٍ به وعلى التثليث ارخت حجابها
وكنا صدقناها المحبة جْهدنا فما الذي منا مع الحب رابها
أذاك لأنّ الشيب كره قربنا اليها ولما تنض عنها شبابها
وِددنا وأبصرنا لها الشرك عامراً ولو أنا رأينا قبل ذلك خرابها
وكم من محبٍ قد تمنى لنفس مَن يحب اذا يخشى عليها ذهابها

ويؤكد قولنا هذا ما ذهب اليه المقري:(٣٨)

وانظر الى صيغة الخطاب المتعقل من رجل خبر الحرب وعاش ويلاتها وما تخّلفه من دمارٍ فشارك اخوانه المهاجرين مصابهم باسلوبٍ حزين يعبّر عن مشاعر ملتزمِة بقضايا الوطن وليست انهزامية كما يرى ذلك الطراسيي احمد اعراب(٤٠) فقال ابو المطرف: (٤١)

قل كيف تثبت بعد تمزيق العِدا آثاره أو كيف يدرك ثاره
ما كان ذاك المصرُ إلا جنةً للحُسنِ تجري تحتها أنهارهِ
طابت بطيب نهاره آصالهِ وتعطرتَ بنِسيمه اسحاره

وعوداً على بدء نقول لقد قرنت الهجرة ومرارتها مع قتل الأنفس مما يدل دلالة واضحة على ذلك القلق الذي كان يعتري الأندلسيين عامتهم وحبهم اللافح لوطنهم، وهذا ليس ببعيد عن تراثهم الديني الذي خبروه استناداً الى الآية الكريمة ((ولو أنّا كتبنا عليهم أنْ اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليلٌ مِنهم)) النساء/٦٦. ولعل المتفحص بدقة لأعداد المهاجرين من بلنسية وحدها لهاله الأمر، فلقد بلغ عدد المهاجرين الى المغرب عن طريق سبته اكثر من اربعمائة الفِ شخص، أما الذين غادروا الى مدن أندلسية بهجرة داخلية قدِروا بأكثر من ثلثمائة الف شخص على رواية ابن خلدون(٤٢). فأعداد مهولةٍ كهذهِ تُنبيء وبما لا يقبل الشك على مدى الهلع الذي أصاب الناس وهم يخشون عددهم. وشاعرنا الذي نطالبه أن يقاوم هذا المد بقلمه وقلبه نراه قد حمل قلبه بيده مهاجراً كالآخرين ومنهم الشاعر ابن الابار(٤٣) الذي يعدّه الباحثون بطلاً في معرِض بحثهم عن صفة الانهزامية التي الصقت بأبي المطرف بن عميرة.

أرى ومن نافلة القول ونحن نتصدى الى موضوع الهجرة الإشارة إلى ما حدث من تخبط ساد الأجواء الشعبية في المدن الأندلسية التي سقطت أو تلك التي تنتظر مصيرها. فظهرت موجة عارمة من الخرافات والشعوذة تربط سقوط كل مدينة بقصة مختلفة من الخيال تمنح بموجبها السقوط شرعية، وتسبغ عليه طابعاً يكاد يقترب من المؤكد. مستمدين تلك الصور، صور الهلاك والتدمير من التراث الإنساني وثقافته.

كانت تلك الخرافات تسري كما تسري النار في الهشيم في سرعتها ونفاذها، فيؤمن الناس بعدئذ بالسقوط، ويعدونه تقديراً من الباري عزّ وجل. ومن هنا فإن أي فتوى تصدر من رجل دين تدعو الى الهجرة تجد لها صدى واسعاً عند العامة والخاصة وهي في الوقت عينه مبررة سلفاً كونها صدرت موافقة لتطلعاتهم ومن علية القوم (الفقهاء).

فلقد افتى الفقهاء لاحقاً ومنهم ابو الوليد بن رشد صاحب كتاب المعيار المعرب بوجوب الهجرة حينما قال: ((فرض الهجرة غير ساقط. بل الهجرة باقية لازمة الى يوم القيامة. واجب باجماع المسلمين على مَنْ اسلم بدار الحرب أن لا يقيم بها حيث تجري عليه احكام المشركين، وأن يهجرها ويلحق بدار المسلمين حيث تجري عليه احكامهم)) وهذه الفتوى تستند في اصولها الى الحكم الرباني في قوله تعالى: ((يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين اولياء من دون المؤمنين. اتريدون ان تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا))النساء/ ١٤٤.

إذن لا مناص من الاقرار بان الهجرة أضحت فرض عين على مسلمي الاندلس بعد ان تسلط عليها غير المسلمين. وكان لا بد من ذلك بعد آن عجزت الوسائل المادية في الدفاع عن حضن الإسلام في صقع الاندلس لفقدانهم النصير والساعد الذي يتكئون عليه وقت اشتداد الخطوب. فتسرب الوهن والملل الى الجيش، وانشغاله بحروب داخلية بعد أن استعرت الفتن والاحن.

غالباً ما يُثار عند الحديث عن ضعف أبي المطرف بن عميرة وانهزاميته تلك الزوبعة الكبيرة والهالة البطولية العظيمة وهي تغطي انجازات الشاعر ابن الابار في الجوانب التي تقدم ذكرها وهي مقارنة غير منصفة كما نرى. فالمتتبع لسيرة ابن الابار يجد تشابهاً كبيراً بينه وبين رفيقه ابن عميرة فالأنفاس الشعرية تكاد تكون نفسها آخذين بعين الاعتبار الملكة اللغوية والابداعية التي لا تتطابق بين البشر. فضلاً عن دوي صوت ابن الابار بطريقة اعلى من صنوه ومردّ ذلك طبيعة عمله المهّمة في بلاط الامراء وكونه مشاركاً في صنع القرار. وسفيراً يطلب المدد والعون لما يتمتع به من لباقة وقبول.

ويرى الباحثون ايضاً ان استصراخ ابن الابار كان أكثر تأثيراً ونحن نقول إن للدعوات الاستصراخية لا سيما الأخيرة التي وجهها الى الحفصيين لم تلبَ إلا بعد فوات الآوان، على هشاشة ما جُهز فيها. كما بينا.

ويعضد قولنا هذا ما نبهّ اليه ابو المطرف بن عميرة في قوله ((إنّه الجلاء والبلاء والدَاهية الدهياء ...فما مقود الحق عن الباطل وادلاله واين الغضب للاسلام للأله ومثل العطب ينفع الغياب وان فات الطلب لم يغن الاستحثاث))(٤٥)

ولعلي لا ابعد أو اجانب الصواب إذا ما عددت النوايا (المبطنة) لتلك الدعوات الاستصراخية نيابة عن الأمير إنما كانت للحفاظ على العرش المهدد لا سيما بعد أن نقض الصليبيون العهود التي قطعوها لهم . وبذلك تكون هذه الصرخات قد افرغت من محتواها الجهادي الى المحتوى الدنيوي. حسب وبعبارة اخرى لم يكن دافعها الاول الحفاظ على بيضة الإسلام وإنما دعوة المضطر الذي لم يحسب للايام وعواديها وغوادرها.

إذن نستطيع القول بعد أن قدمنا من مبررات إنّ ابا المطرف كان اكثر عقلانية وتأنٍ من غيره من الشعراء، فلم يثر السقوط انفعالاته المتسرعة ولم يدع الى فتوحات لامصار ومدن جديدة بمبالغة واضحة تسبغ على القادة والأمراء فكان ينظر كما رأينا من زاوية درء المفاسد مُقدّمٌ على جلب المنافع والمدافعة بأسلحة أفرغ محتواها العقدي والجهادي. حتى أضحت مزامير وطبول ليس إلا! كما قال الشاعر العقيلي(٤٦)

بالطبل في كل يومٍ وبالنفير نراع
وليس من بعد هذا وذاك إلا القراع

اليأس والأمل معادلة اندلسية على مر العصور:

إنّ نظرة متمّعنة في نسيج المجتمع الأندلسي، وعبر قرونه الثمانية ستخبرنا وبلا ادنى شك عن ذلك التنافر بين مكوناته، وإن بدا في ظاهرة مُجتمعاً متماسكاً. فاتسعت على وفق ذلك الهوّة بين ابنائه.

فالعربُ بقبائلهم ومشاربهم المتنوعة. والبربر بخلفيتهم الصحراوية المتعجرفة والمولدِّين وما يحملونه من انحيازٍ واضح للخؤولة أكثر من العمومة. والصقالبة العبيد الذين علا شأنهم في عهد ثالث الأمراء الأمويين وما تلاه لاحقاً. واديان أُخرى كاليهود والمسيح...وسواهم.

مجتمع كهذا وإن حاول حكامه الظهور بمظهر الألفة والتسامح إلا أن هذا الخليط جعل كل فئة تشعر أنها أقلية تخشى من أنْ تغيبّها القوة الأقوى منها في حلبة الصراع الاجتماعي. فظهر نوع من القلق والخوف مردهما تلك الخلفيات المتناقضة، فبدأ يظهر بين الحين والأخر وأتى أُكله في معادلة أطرافها يأسٌ شديدٌ وأملٌ بعيد فغاص الفرد الاندلسي في حياة مترفة جداً، وانبسطت اليد

وبُنيت القصورُ وشُربت الخمورُ شعوراً منهم بانتهاز فرص الحياة المؤاتية خوفاً من انحسارها أو ذهابها، بعد أن طارت إلى أسماعهم قصص المدن التي سقطت. فذهب النعيم بسقوطها.

ومنهم– وهم العامة– من اتجه نحو الزهد والتصوف والانكباب على الدين خشية الله سبحانه وتعالى، بعد أن شعروا باقتراب آجالهم.

ولَّدتْ هذه المعادلة غير المتكافئة قلقاً موضوعياً على مصيره ومصير بلاده. فظاهرة القلق لازمت الفرد الاندلسي وجعلته يتآرجح بينهما ليس على الصعيد النفسي الشخصي فقط بل امتدت تشمل نظرته الى الكون والحياة والصراع الدائر في هذه الارض القِلقة المهاد. فالشاعر ابو المطرف بن عميرة من الشعراء الذين وعوا هذه الحقيقة، بل عاقروها يومياً مع لبن الحياة متجرعاً كأس الهوان بعد أن لاحت في الافق القريب تلابيب سقوط مدينته والمدن الأخرى.

فاليأس هنا متمثل باحساسه بقدرة الغالب (النصارى) على قومه المغلوبين، فالقى هذا الاحساس بظلال نفسيه ثقيلة عليه. بل هو اعتراف بطريقة أو بأخرى بقدرة الاخر عليه. وإنّه خاسر لا محالة. كقوله في سقوط بلنسية:(٤٧)

أما بلنسية فمثوى كافر حفت في عقرها كفاره

زرعٌ من المكروه حل حصاده بِيد العدو غداة لجّ حصاره

وعزيمة للشركِ جعجع بالهدى أنصارها إذ خانه أنصاره

يبدو مما تقدم ان الشاعر قد أحاطه خوفٌ غامض سبب له كدراً وضيقاً، وهو يتوقع الاسوأ على الدوام، فاقدٌ للثقة بنفسه مترددا ينتابه العجز في اتخاذ أي قرار. فنفسه في تكويناتها لا شك أنها مركبة تركيباً معقداً تطغى الذات فيها بين الحين والآخر. فيتحول عندئذ الخاص الى عام في تجربته الشعرية وهي تصور ذلك الصراع الداخلي الذي يعتصر نفسه بين الذات والواقع، بين الروحي والحسي فيقول: (٤٨)

أمِن بعد رزء في بلنسية ثوى باحنائنا كالنار مضرمة الوقدِ

يرجى أناسٌ جنة من مصائب تطاعن فيهم بالمثقفة الملدِ

وفزعُ الرحيل سيترك من ورائه ذكريات يستحضرها بين الحين والآخر، ستكون جرحاً عميقاً لا يندمل. والهجرة موت وربما أكثر، حيث أنها موت متكررٌ متأتٍ من الهجرة الأولى والثانية والثالثة وهُلّم جراً فصورُ كل مكان وهي تتداعى بمذكرته تثير في نفسه كوامن اليأس على نحو قوله: (٤٩)

نأت عنك من أكناف وجرة دورها وقد أفلت بعد الطلوع بدورها

وكانت سطوراً بيناتٍ لناظرٍ فقد خفيت بعد البيان سطورها

ومرت بها ريحا: صبا وصبابةٍ وكلتاهما أخنى عليها مرورها
ذكرتُ بها عهداً لذكراه لوعة يهيجُ تباريح الجوى ويثيرها

وقوله في موضعٍ أخر(٥٠):

واقفر رسم الدار إلا بقية لسائلها عن مثل حال تخِبرُ
فلم تبقَ إلا زفرةً إثر زفرةٍ ضلوعي لها تنقدُّ أو تتفطر

بقدرِ ما مثلت المرأة يوماً من الأيام رمزاً للخصب، فإنها مثلت أيضاً في نظر شاعرنا رمزاً للغدر والجدب، فاستحضار صورة المرأة في شعره إنما استخدم رمزاً مقنعاً آخر من وجوه التعبير تلبيه لغاية في نفسه القلقة من المجهول والمرآة فلقد قرنها بالهجر والرحيل وهي صفة أخرى للمرأة الحسناء التي استقامت لاعدائه كقوله: (٥١)

زدنا على النائين عن أوطانهم وإن اشتركا في الصبابة والجوى
إنّا وجدناهم قد استسقوا لها من بعد أن شطت بهم عنها النوى
ويصدنا عن ذاك في أوطاننا مع حُبِّها الشرك الذي فيها ثوى
حسناءُ طاعتها استقامت بعدنا لعدونا أفيستقيم لها الهوى؟

هذه القصيدة التي اقتطعنا منها الأبيات المتقدمة مثلت روحاً وطنية صادقة ومعبرة أحسّ بها المقري حين عدّها أفضل ما سمع من أبيات في معناها ومبناها مع ادماجه الحب الشاعر لمدينته، هذا الحب الذي لم يتسِرب إليه الشك أو الريبة.(٥٢)

ولنعطف عِنان الكلام ونتجه ببحثنا نحو صور الأمل التي كانت تطفح بين الحين والآخر في معادلة اليأس والأمل الاندلسية عند شاعرنا وهي على الرغم من قلتها فإنها تمنحنا بُعداً آخر حاول الشاعر انتهاجه لتضميد الجراحات ويجبر القلوب المنكسرة، فتراه قد استنفر طاقته الوطنية من جديد وهي مدعمة بعاطفة صادقة ليحيلها الى شعرٍ تسمو فيه روح البطولة والأمل باسترجاع ما ضاع، كقوله: (٥٣)

والروم حربُ لنا وهم وشلٌ سالمه الواردون فاستبحر
إنا لنرجو للدهر فيئة من أناب مما جناه واستغفر
ونرقب الكرة التي أبداً بها على الروم لم نزل نُخبر

أملٌ مشروع باعادة البسمة للاندلس والى مدينته شقر وبلنسية، ولكنه أمل تعلوه علامة كبيرة من الدهشة المفرطة لتتوقد بذلك لحظات من التوترات النفسية التي حوَّلته الى انسانٍ منكفٍ على نفسه في اخريات حياته.

تعميم أسباب الانكسارات وظاهرة فقدان النصوص الشعرية

لعل المتفحص في الشأن الاندلسي في شقيّه التاريخي والأدبي سيصطدم بظاهرتين جليتين يتوجب اقرارهما والوقوف عندهما. واعني بذلك تعميم الاسباب التي آلت الى السقوط والانهيار للمدن والمماليك والامارات والهزائم المتلاحقة من دون الإشارة المباشرة الى ذلك لا سيما إذا تعلّق الأمر بنَكوصٍ أو تخاذل بيِّن من أولي الأمر، ممنُ كلّفوا بواجب الجهاد والحفاظ على بيضة الإسلام هناك. والأخرى ظاهرة فقدان النصوص الشعرية أو الدواوين لشعراء كان من المفترض أن يكونوا غزيري النتاج ليس لاسباب تتعلق بالكوارث او عوارض الزمن. بل لأسباب لا تخرج من نطاق التهميش المتعمد او الإلغاء المقصود لهذه النصوص لما تحمل في طياتها نقداً لاذعاً. أو تضع الاصبع على الأسباب التي آلت الى هذا التردي الذي لمسناه في مناحٍ متعددة.

والأمر يَصبحُ اكثر ايغالاً وتعقيداً حينما يتعلق بشخصية كالشاعر أبي المطرف بن عَميرة الذي جمع بين رياسه القلم في البلاط، كاتباً وقاضياً، ورياسة الأدب في الوقت نفسه. ولذلك لم نقف على ديوانٍ خاصٍ بهِ سوى أبيات قليلة قياساً الى عمره الإبداعي، وما ناله من شهرة كبيرة في اوساط الباحثين القدامى ممن عاصروه أو جاءوا بعده(٥٤). ونتوقع أن يكون هذا التغييب مقصودا، كما نتوقع أيضاً أن الصور الجهادية البطولية قد ضاعت مع ما ضاع من شعره الثر الذي اتفقت على غزارته اراء القدامى والمحدثين.

إنّ حجتنا في هذا الجانب، وإن بدت ضعيفه بيد أنّها تلقي بظلالها على مساحة واسعة من الشعر الأندلسي الذي تعرض الى المصير عينه ساعتذاك. وتدعونا من ناحية أخرى الى لفت الانظار الى دراسة هذا الأمر الذي شكل ظاهرة واضحة في خريطة الأدب الاندلسي بصنويه الشعر والنثر.

فوراء هذا الفقدان منعطفٌ سياسيٌ واضحٌ لا يمكن البتة التغاضي عنه أو انكاره.

وللعلة ذاتها تبرز على السطح ايضاً ظاهرة النصوص الشعرية التي تحمل الانفاس نفسها التي تحدثنا عنها ولكنها قُيدت لشاعر مجهول هرباً من المساءلة وتخلصاً من البطش من هذا الحاكم أو ذاك الأمير.

نكرر إن حجتنا في هذا المحور تتبلور في دفع الهزيمة من الشاعر ملتمسين العذر لما أصاب شعر شاعرنا من نضوب بسبب العلتين التي ذكرناهما.

الخاتمة ونتائج البحث

بعد حمد الله على نعمائه نقول:

حاولت الصفحات السابقة أن تجلو صفحة مهّمةً في تاريخ الأدب الاندلسي في عهد الموحدين، حيث عاش شاعرنا ابو المطرف بن عميرة المخزومي وأن تدفع عنه التهمة التي الِصقها عدد من الباحثين بعمله الإبداعي الشعري لاسيما في الجانب الوطني منهِ. تلك التهمة التي نادت بَانهزامية الشاعر في مواقف كان الأجدرُ به أن يكون غير ذلك تأسياً بصديقه ومعاصره الشاعر ابن الابار القضاعي.

فحاولنا، بما تيسرِ لنا من نصوص شعرية للشاعر، أن ننظر اليها من منظار آخر، يبدو أكثر عُمقا في استبطان الأحداث والغوص في لججها أو ماوراءها، مع قراءة متأنية للواقع السياسي والاجتماعي للاندلس واستطعنا- بعد توفيق الله- أن نقرر عدد من النتائج التي طفحت على بساط البحث، وهي:-

١- إنّ سقوط المدن الأندلسية وانتثار عقدها لم يكنُ بدعاً في تاريخ الدول والحضارات فكثيرٌ من الدول قد آلت ودالت وعاثت بها يد الحدثان على مر الازمنة والعصور. ومما يؤسف له أن ما شهدناه في الاندلس هو انهيارٌ لحضارة كانت مناراً على مرِّ عصورها ليس في تأثير سطوعها على الأمتين العربية والاسلامية فحسب بل على اوربا ايضاً وهو بذلك اكثر ايلاماً وأوغر جرحاً. وفي الوقت عينه نقرر أن هذا السقوط جاء نتيجة حتمية ومنطقية لتسلسل الانهيارات وتعدد مواضع الضعف.

٢- إنّ منطق الكرِّ والفرِّ لم يَعُد مفردة في حياة الأندلسي الذي أَلِفَ حياة الدِعة والفتور. فضلاً عن ركون الأندلسيين إلى حقيقة لم يحسنوا تقدير حساباتها وهي أنّ الأندلس بوصفها كياناً ودولة رسخت جذوره في مجرى التاريخ وبناء الأمم، فلا يمكن زحزحة أركانه. فتسربت على وفق ذلك الى نفوس العامة والخاصة حالة من الاسترخاء والغفلة. فتعطلت قواهم العسكرية والمعنوية.

٣- اختلاف في رؤية الباحثين إزاء مفهوم الجهاد والرباط ومعاني البطولة وسواها من المفاهيم العقدية، ادى الى اختلافِ نظرتهم إلى معناها وما ينضوي تحتها من مفاهيم. فمنهم من كان يظنّ ان هذه المصطلحات يجب ان تظهر واضحة في قصائد الشعراء، فتتعالى اصواتهم الجهادية باسلوب يُسمع دويه في كل زمان ومكان. ومنهم- ونحن منهم- نظرنا الى النصوص من زاوية اكثر اتساعاً الأولى، فنحيلُ ما هو تعبير عن الوطنية أو ما تراءى لنا الى صنف من صنوف الجهاد، لأنها منبعثة من التصور الإسلامي لمفهوم الأدب. بعد تآزر الإغراض مع بعضها لتؤلف نسيجاً من الشعر الجهادي غير محدد في إطارٍ بعينه، بل يتفرع إلى دلالات وأبعاد شتى.

٤- كان من نتائج هذه النظرة المتقدم ذكرها، أنْ جاءت فلسفة النصر على وفق العقلية العربية والإسلامية، فلسفة كانت وما تزال تنظر الى المعارك من كوة واحدة، هي النصر فحسب. فتراها تتغنى به سواءٌ أكان حقيقياً حادثاً أم مزعوماً في المحافل الرسمية والشعبية، اشباعاً لرغبة في ذلك أو تطلعاً لرؤية الاعلام ترفرف على الدوام وصولاً الى المثالية والكمال في حياته، لما جبل عليه من روح بدوية تغلب عليها السطوة والاقتدار والفخار. وحينما وضع شاعرنا الأمور في نصابها ووضع الأصبع على أسباب الانهيار وإن كان في تؤدة ورفق، عُدّ هذا ضرباً من ضروب الانهزام والنكوص والتخندق خلف متاريس الجبُنِ!

٥- أظهر البحث أن مبدأ القضاء والقدر وما خُطّ في اللوح المسطور هي من السمات البارزة التي ألفناها في قصائد الشاعر ابن عميرة. وهي إن فهمت على انها مثبطّة للعزائم ودعوة يُشم منها رائحة التقاعس عن اداء الواجب الجهادي إلا انها في حقيقة أمرها نراها من صلب العقيدة الإسلامية التي على المؤمن الاعتقاد بها وتصب في معنى واحد هو ان إرادة الله فوق الإرادات. لذلك تخالف ما ساغه الباحثون من أراء تدعم نظرية الانهزام عند الشاعر لقصور في هذه الرؤية وتناسي هذه الحقيقة.

٦- لا يخفى على المُلاحظ للأجواء السياسية والشعبية التي سادت في عصر الشاعر تلك الحالة المتأصلة في نفوس الشعب واعني بها الانكسار والوهن والانكفاء على الذات. بسبب انغماس اولي الامر منهم في حياة الدعة والملذات وترك الامور على الغارب من دون الالتفات الى تحصين الجانب السياسي والعسكري والمعنوي. وشاعرنا جزءً من الحالة نفسها وعاش بين ظهرانيها فتسرب هذا الانكسار الى شخصيته وشعره، بشكل أو بأخر، ولو بدرجة اقل ...

٧- ميل الشعراء ومنهم شاعرنا أبو المطرف بن عميرة نحو الواقعية الحقة دونما هيامٍ بوادٍ مِن الانتصارات الوهمية التي لن نشهد لها صدىً سوى بعض المعارك الكبرى، كمعركتي الزلاقه (٤٧٩هـ) والارك (٥٩١ هـ) ويعضّد رأينا هذا ما وقفنا عليه من نصوص لا يمكن حصرها تتغنى بفتوحات وانتصارات واهية، أو لم يكن لها شأن على الصعيدين العسكري والمعنوي.

٨- أيقن شاعرنا أن الاستنجاد وطلب الغوث من الإخوة المغاربة أو سواهم من الحفصيين والمرينيين لم يكن مجدياً، لا سيما وان بعض الدعوات الاستصراخية التي سبقته او عاصرته لم تلبَّ، ولم يكترث المستصرخ بهم لهذا الأمر. فجال بنظره نظرة اخرى، متضرعاً لله- عز وجل- ومنكفئاً على نفسه وبتركيز عاطفي واضح بدت ملامحه في شعري رثاء المدن وشعر الغربة والحنين بعد التهجير القسري.

٩- إن ما تواتر من صور المدن الساقطة المترسمة في مخيلة الشاعر أو تلك التي عاشها فعلاً باحداثها وحاك لنا ما حلّ بها كمدينتي ميورقة ومنورقة من سبي وتعذيب وهتك للاغراض فضلاً عن نظرة الذل والتهجير القسري. تراه يدعو بين العينية والأخرى الى الهجرة وترك الديار خوفاً مما تقدم. وتمشياً مع النظرة الاسلامية التي ترى بان لا يتخذ المؤمنون النصارى اولياء لهم. وهكذا فقد افتى الفقهاء بوجوب الهجرة ساعتذاك. فوظف شاعرنا نفسه مُعلناً لذلك. فُشمّت منه رائحة الانهزام ايضاً.

١٠- حاول الشاعر في قصائده توظيف المكان بشقيه الحقيقي المسَلب الذي كان مرتع الصبا وبهجة الانفس والمكان المستبطن في دواخله من خلال استحضاره رموزاً مشرقيه ذات دلالات موحية مثل نجد والشام ... وسواها اثناء رثائه واستصراخه. فهذه الالتفاتة الذكية بين ربط التراث المشرقي الذي كان يعدَّونه مصدراً للقوة والمنعة في نظرهم والمدينة التي هي قاب قوسين أو أدنى للسقوط والاستلاب مما يدَفع المستصرخ به وبطريق استفزازي للوثوب والنجدة. فطريقة ذكية مثل هذه حسبت على شاعرنا ولم تحسب له!

١١- أيقنَ الباحثُ أن هنالك منعطفا سياسيا اعترى حياة الشاعر أبي المطرف بن عَميرة الإبداعية فغيبّ نصوصه الشعرية أو أَضاعها لما تحمله هذه النصوص من بصماتٍ نقدية وغيرة وطنية توقظ هواجع الراتعين في الدعةِ من الأمراء. ولعلَّ قادمُ الأيام سيجلي ذلك.

-والله الموفق

الهوامش

١- ابو المطرف بن عَميرة بفتح العين. هكذا ضبط اسمه من قبل الذين ترجموا له قدامى ومحدثين. ومنهم محمد بن شريفة في كتابه ابو المطرف بن عميرة حياته وأثاره. ولد عام ٥٢٨هـ بمدينة شقر. ويعود نسبه الى قبيلة خزيمة. تنقل بين مدن اندلسية كثيرة مهاجراً أو بحثاً عن العمل. او تكليفاً له. حتى استقر به الأمر في مدينة بلنسية بالاندلس قبل هجرته الى المغرب العربي. حمل لواء الشعر والنثر في

الاندلس في القرن السابع للهجرة مع صنوه ورفيق دربه الشاعر ابن الابار. له مؤلفات كثيرة في مناحٍ معرفية متعددة. عمل قاضياً وكاتباً في البلاط. ترجمته في الديباج المذهب ص١٢٤ والاعلام بمن حلَّ مراكش واغمات /٣٣ ونفح الطيب٤/٢٣٣. وينظر في ذلك ايضاً ابو المطرف بن عميرة.حياته واثاره.

٢- كالدكتور عبد الرحمن الحجي في تاريخ الاندلس: / ٣٥١. والطرايسي احمد اعراب. الاصوات النضالية والانهزامية / ١٦٠. د. يوسف عيد في كتابه اصوات الهزيمة / ٢٩ ...وسواها.

٣- تحفة الانفس: / ٢٩

٤- ينظر: الشعر والجهاد في ظل العرش المغربي: / ١٤٥.

٥- عن تلك الرسائل وسواها ينظر نفح الطيب ٤/ ٤٩٤.

٦- ابو عبد الله ابن الابار القضاعي البلنسي(٦٠٨هـ) له ديوان شعري كبير بتحقيق د. عبد السلام الهراس. كان معاصراً لابي المطرف بن عميرة. ترجمته في الذيل والتكملة ٦/ ٢٥٣ عنوان الدراية ص٣٠٩. سير اعلام النبلاء ٢٣/ ٣٣٦ نفح الطيب ٢/ ٥٨٩.

٧- اشبونة: احدى مدن غرب الاندلس سقطت عام ٥٤٢هـ.

٨- شنترين: احدى مدن شرق الاندلس سقطت عام ٥٤٣هـ.

٩- طرطوشة: احدى مدن شرق الاندلس سقطت عام ٥٤٣هـ

١٠- جزر البليار: ميدرقة ومنورقة ويابيسه وكلها تقع في شرق الاندلس وسقطت تباعاً منذ عام ٦٢٣هـ-٦٢٧هـ)

١١- قرطبة: كبرى مدن شرق الاندلس وحاضرة الدنيا في وقتها ودار العلوم والفن. سقطت عام (٦٣٣هـ).

١٢- الحلة السيراء ٢/ ٢٦٩

١٣- الرسائل ص٢٠٨ مخطوط: نقلاً عن ابي المطرف بن عَميرة حياته آثاره ص٢٣١ الروض المعطار / ١٥١,

١٤- نفسه.

١٥-نفسه

١٦- نفسه / ٢٣٣ .

١٧- نفح الطيب ٤/ ,٤٩٤

١٨- تاريخ ابن خلدون: ٨٥

١٩- للاستزادة في ذلك ينظر نهاية الاندلس / ٧٤. تاريخ الاندلس اشباخ / ٣٤٥ مواقف حاسمة ص٥٣.

٢٠- ينظر نهاية الاندلس / ٧٥ وما بعدها

٢١- المرية:إحدى مدن شمال الأندلس سقطت في الحرب الاستردادية .ينظر صفة جزيرة الاندلس ص١٨٣

٢٢- لاردة:احدى مدن شمال غرب الاندلس سقطت في الحرب الاستردادية.ينظر صفة جزيرة الاندلس ص١٦٨

٢٣- افراغة:احدى مدن شمال غرب الاندلس سقطت في الحرب الاستردادية المعلنة ينظر صفة جزيرة العرب ص ٢٤

٢٤- الذيل والتكملة: ١/ ٨٧

٢٥- ابن الدباغ: محمد بن ابراهيم بن الفرج الأوسي ترجمته في الديباج المذهب.
٢٦- نفح الطيب ٤/٤٦٤
٢٧- ينظر الاصوات النضالية والانهزامية / ١٦١
٢٨- معركة الأرك:معركة تهيأت لها أسباب النجاح والنصر على يد يعقوب المنصور الموحدي ضد النصارى عام ٥٩١هجرية.
٢٩- ابن العسال:ترجمته في صفة جزيرة الاندلسص٤٠ والنفح٦/٦٤
٣٠- عن هذه المعركة ونتائجها ينظر نفح الطيب ٤/ ٤٦٠
٣١- منورقه: احدى جزر البليار شرق الاندلس ينظر صفة جزيرة الاندلس / ١٩٨
٣٢- ميورقه: احدى جزر البليار شرق الاندلس
٣٣- مقدمة في دراسة الأدب الإسلامي: / ,٢٤
٣٤- نفح الطيب ٦/ ,٢٤٢
٣٥- نفح الطيب ٤/ ٤٩١
٣٦- نفح الطيب ٤/ ,٤٨٤
٣٧- الذيل والتكملة ق السفر الاول ص١٧٤
٣٨-الرسائل ص١٣١ مخطوط نقلاً عن ابي المطرف بن عميرة حياته وآثاره / ٢٣٤.
٣٩- ابو المطرف بن عميرة حياته وأثاره: ص,٢٣٣
٤٠- الأصوات النضالية والانهزامية /١٦٤ .
٤١- الروض المعطار: ص١٥١- ١٥٢
٤٢- تاريخ ابن خلدون: ١/ ٥٦ وينظر ايضاً عصر المرابطين والموحدين ص٤٨٦
٤٣- اتفقت المصادر على هجرته مع ابي المطرف بن عميرة.
٤٤- المعيار المعرب:٢/١٢٤
٤٥- الرسائل مخطوط: نقلاً عن ابي المطرف بن عميرة حياته وآثاره ص,٢٣١
٤٦- العقيلي:ترجمته في النفح ٣/٢١٨
٤٧-تحفة القادم :ص٢١٥
٤٨-مخطوط الاوسكوريال رقم ٥٢٠ورقة ٧٨نقلا عن ابي المطرف بن عميرة حياته واثاره ص٢٣٣
٤٩-النفح :١/٣١٠
٥٠:النفح٤/٤٩٤
٥١-النفح :١/٣١٠
٥٢- نفح الطيب ١/ ,٢٨٩
٥٣-مخطوط الاوسكوريال رقم ١٦نقلا عن ابي المطرف بن عميرة حياته واثاره ص٢٣٢
٥٤- نرى من غناء القول: الإشارة إلى غزارة نتاجه الشعري الذي شكلَّ ظاهرة كبيرة وقف عندها معاصروه أو الذين تبعوه .

المصادر والمراجع والدوريات:

- القرآن الكريم
- أبو المطرف بن عميرة حياته وآثاره: تأليف محمد بن شريفه منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، مطبعة الرسالة ١٩٦٦.
- أصوات الهزيمة في الشعر الأندلسي/ د. يوسف عبد/ دار الفكر اللبناني بيروت الطبعة الاولى ١٩٣.
- الأصوات النضالية والانهزامية في الشعر الأندلسي- الطرايسي احمد اعراب- عالم الفكر عدد١٢ لسنة ١٩٨١.
- التاريخ الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة- عبد الرحمن الحجي- دار القلم بيروت ط الاولى ١٩٧٦م.

- تاريخ الاندلس في عصر المرابطين والموحدين، يوسف اشباخ- ترجمة محمد عبد الله عنان- مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٠م.
- تحفة القادم لابن الابار (ت٦٥٨هـ) اعاد بناءه وعلق عليه احسان عباس دار الغرب الإسلام، ط الاولى ٥٦.
- تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس، علي بن عبد الرحمن بن هذيل، مصور مخطوط لويس مرسيه، باريس ١٩٣٢م.
- الحله السيراء، ابن الابار البلنسي ج١-٢ ، تحقيق د، حسين مؤنس، طبعة الشركة العربية للطباعة١٩٦٣.
- الديباج المذهب في معرفة اعيان علماء المذهب. ابن فرحون المالكي (ت٧٩٩هـ)، تحقيق محمد الأحمد ابو النور دار التراث القاهرة ١٩٧٢.
- ديوان ابن الابار، ابن عبد الله القضاعي البلنسي (ت٦٥٨هـ) قراءة وتعليق
د. عبد السلام الهراس، الدار التونسية ١٩٨٥.
- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، ابو عبد الله المراكشي (ت٧٠٣هـ، السفر الاول، القسم الاول تحقيق محمد بن شريفه، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٤.
- صفة جزيرة الاندلس منتخبة من كتاب الروض المعطارفي خبر الاقطار للحميري عني بنشره بروفنسال دار الجيل بيروت١٩٨٨.